﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤ مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥﴾ [نوح: 21 - 25]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

اللُّجوءُ إلى ربِّ العبادِ عِندَ الشَّدائِدِ والمُلِمّاتِ

بعدَ أن دعا نوحٌ ﷺ قومَهُ باللّين والحكمة، وأقامَ عليهم الحُجَجَ والبراهين، وتفنَّن في أساليبِ الدَّعوة من ترغيبٍ وترهيبٍ، ولَم يَكُن منهُم إلّا الإصرارُ عَلى الباطل، وتجاوزوا ذلك إلى معاملَتِه بأشنعِ الأقوالِ والأفعال، والنِّسبة إلى الضَّلال؛ لجأ نوحٌ ﷺ إلى ربِّه يَشْكوهُم، ويَدْعو عليهِم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَسَارٗا﴾: أصلُ (خسر) يدلُّ عَلى النَّقْصِ، فالخَسارة والخَيْسَرى: الضَّلالُ والهلاكُ والنُّقصانُ، والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته[2]، والإخْسارُ: جَعْلُ الآخر خاسِرًا، والخَسارُ: مِثْلُ الخَسارَةِ، وهو نُقْصانُ التِّجارَةِ[3]، فالخسار معناه هنا: النَّقص، واسْتُعير في الآية لخيبة العَمَلِ، ولحُصولِ الشَّرِّ من وسائلَ شأنُها أن تكونَ سبب خيرٍ كخسارةِ التّاجِرِ من حيثُ أراد الرِّبحَ[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 655، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 284، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 240.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.

2) ﴿مَكْرًا﴾: أصلُ (مكر) يدلُّ على الاحتيالِ والخِداعِ[1]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[2]، والمَكرُ: إيصالُ الشَّرِّ إلى الآخر بطَريقٍ خَفيٍّ، وكذلك الكَيدُ والمخادعةُ، ولكِنَّه نوعانِ: قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لِمن لا يستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عقوبةً له، فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثّاني ممدوحٌ[3]، والمَكْرُ في الآية معناه: إخفاءُ العَمَلِ، أوِ الرَّأيُ الَّذي يُرادُ به ضُرُّ الآخر، والمُرادُ: مَكروا بنوحٍ والَّذينَ آمنوا معه بإضمار الكيدِ لهُم حتَّى يقعوا في الضُّرِّ[4].

3) ﴿كُبَّارًا﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خِلاف الصِّغر[5]، وكَبُرَ - بالضَّمِّ - يَكْبُرُ، أي: عَظُمَ، فهو كَبيرٌ وكُبارٌ، فإذا أفرط، قيل: كُبّارٌ، والكِبر: العظمةُ، وكذلك الكبرياء[6]، والكُبارُ أبلغُ من الكبيرِ، والكُبّارُ أبلغُ مِن ذلك، فـ﴿كُبَّارًا﴾ هنا مُبالغَةٌ، أي: كبيرًا جِدًّا، وهو واردٌ بهذه الصّيغة في ألفاظٍ قليلةٍ مِثلَ طوّالٍ، أي: طويلٌ جِدًّا، وعُجّابٍ، أي: عَجيبٌ، وحُسّانٍ، وجُمّالٍ، أي جَميلٌ، وقُرّاءٍ لكثيرِ القِراءة، ووُضّاءٍ، أي: وضيءٌ، قال عيسى بنُ عُمَرٍ: هي لُغَةٌ يمانيَّةٌ[7].

كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾[8]، أي: كبيرًا عظيمًا على وجهِ المُبالغَةِ[9].

4) ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾: أصل (وذر) يدلُّ على قَذْفِ الشَّيءِ وإلقائه لِقلَّة الاعتداد به، والوَذْرَةُ: قطعةٌ من اللَّحم، وتَسميتها بذلك لقلَّة الاعتداد بها[10]، والعرب قد أماتت مصدرَهُ والفعلَ الماضيَ واسمَ الفاعِلِ مِنْهُ، فلا يُقالُ: وذَرَهُ، ولا واذِرٌ، ولكن يقولون: تركهُ، وهو تارِكٌ، واستعملوهُ في المضارع والأمر، فإذا أرادوا المصدر؛ قالوا: ذَرْهُ تركًا، ويُقالُ: هو يذَرُهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(2) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (مكر).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (مكر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(6) الجوهري، الصحاح: (كبر).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.
(8) الراغب، المفردات: (كبر).
(9) الواحدي، البسيط: 22/ 263، والخازن، لباب التأويل: 4/ 346.
(10) الراغب، المفردات: (وذر).

تركًا[1]، وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: 44]، أي: كِلْه إليَّ، ولا تَشغَلْ قَلْبَكَ بِهِ، فإني أُجازيه[2]، والمقصود بـ (لا تَذَرُنَّ) في الآية: نهيٌ من فِعل مُماتٍ، وهو (وَذَرَ)، استغنوا عنه بمرادفه وهو (تَرَكَ).

5) ﴿وَدًّا﴾، و﴿سُوَاعًا﴾، و﴿يَغُوثَ﴾، و﴿وَيَعُوقَ﴾، و﴿وَنَسْرًا﴾: هذه أسماءُ آلهتِهم وأصنامِهم، وهي أسماءُ رجالٍ صالحين كانوا بينَ آدمَ ونوحٍ عليهما السلام، فلمّا ماتوا؛ جَعلوا لهم صورًا؛ ليقتدوا بهم في العبادة، ثُمَّ نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليسُ: إنَّ الذين مَن قبلَكُم كانوا يعبدونَهُم، فبدأت عبادةُ الأصنام، ثُمَّ انتقلت هذه الأوثانُ إلى العرَبِ، فودٌّ كانت لكَلْبٍ بدومَةِ الجَنْدَل، وسواع لهُذَيْلٍ، ويغوثُ لمُرادٍ ثُمَّ لبني غطيفٍ بالجُرَف، ويعوقُ لِهَمْدانَ، ونَسْرٌ لحِمْيَرٍ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشَّكوى والدعاءُ نصرةٌ للحقِّ بعدَ استِنفادِ السُّبل

يخبر اللّهُ تَعالى عن شكوى نوحٍ عليه السلام لربِّه المُحْسِن إليه إصرارَ قومِه على العصيان والتَّكذيب، وأنَّ الضُّعفاء منهم اتَّبعوا رُؤساءَهُم الضّالّين، الذين لم تَزِدْهم أموالُهم وأولادُهم إلّا ضلالًا في الدُّنيا وعقابًا في الآخرة، ثُمَّ يُخْبِرُ عن مَكْرِ كُبَرائِهم بما دبَّروا لقومِهم من مكائدَ عظيمةٍ لإضلالهم، فأمروهُم بالتَّمسُّك بعبادةِ آلهتهم: ودٍّ، وسواعٍ، ويغوثَ، ويعوقَ، ونَسْرٍ، وتَرْكِ ما يدعو إليه نوحٌ عليه السلام من عبادة اللّهِ تَعالى وحدَهُ، ثُمَّ يختَتِمُ بدُعاءِ نوحٍ عليه السلام على الظّالمين، طالبًا من ربِّه سُبحانَهُ أن يزيدَهُم بُعْدًا عن الحقِّ، ويُبيِّن أنَّ إصرارَهُم على الكفر والطُّغيان أدّى إلى إغراقِهم بالطّوفان وإدخالهم نارًا عظيمَةً، فلَم يَجِدوا لأنفُسِهم ناصرًا أو دافعًا لعذابِ اللّه تَعالى[4].

(1) الخليل، العين: (وذر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وذر).
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 346.
(4) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 571.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة تكرار فعل القولِ مع أسلوبِ النِّداءِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

استئنافُ الشَّكوى بعد طولِ البيانِ

أعاد النَّظم الجليلُ ذِكْرَ فعل القولِ مع النِّداءِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ، في قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾، بعد أن وردَ ذلكَ في أوَّل السّورة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ وذلك لطول الفاصل والعَهْدِ بعدَ حكاية مناجاته لربِّه، فجملةُ ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن تلكَ الجملة[1]، فإنَّ حكاية عصيانِ قومِه هي ممّا اشتملَ عليه الإخبارُ عن دعوتِه لَهُم، فالمَقالَتان في وقتٍ واحد[2]، ولم تُصَدَّر بالواو؛ لكمال الاتِّصالِ بينَ الجملتين.

ويجوزُ أن يكون فصلُ الجملة عمّا قبلَها؛ لكونِها مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، واردةً لبيان الكلام الأوَّل[3]، فإنَّ نوحًا ﷺ لمّا ساقَ لهم الأدلَّةَ على الألوهيَّةِ، وعدَّد لهم نِعَمَ اللّه تعالى عليهم؛ أورثَ ذلك سؤالًا في نفسِ المتلقّي: هل استجابوا، وانقادوا للشَّرع؟ فجاء الجوابُ بنَفْيِ ذلك؛ بدليل دعاءِ نوحٍ ﷺ علَيهِم.

نكتَةُ إظْهارِ اسمِ نوحٍ ﷺ بدلَ إضْمارِهِ:

إظهارُ الاسمِ تعظيمٌ لمقامِ الشَّكوى وبيانُ شدَّةِ التَّحسُّر

أُظْهِرَ اسمُ نوح ﷺ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ دون الاكتفاءِ بالضَّمير؛ وذلك لبُعْدِ معاد الضَّمير لَو تحمَّله الفعلُ[4]، فكان في الإظهارِ مزيدُ بيانٍ، كما أنَّ التَّصريحَ بالاسْمِ تنويهٌ بأهمّيَّة مقولِ القول، فهو شكوى بليغَةٌ مِن نوح ﷺ؛ لِما لاقى مِن قَوْمِه، فأعلن شَكْواهُ بعدَ رِفْقِه بهِم على طولِ عَهْدِه بهِم، ولينِهِ لَهُم بالقَوْلِ والخِطابِ[5].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 258.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 199.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.

سِرُّ التَّعبير بالنِّداءِ وحَذْفِ أداتِه:

استحضارُ القُربِ وعلوِّ المقامِ مِن فُيوضاتِ الكِرام

عبَّر النَّظم الجليلُ بأسلوب النِّداء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾؛ لإظهار التَّوجُّع والشَّكوى مِن قومِه[1]، والنِّداء يشيرُ إلى أهمّيَّة مضمون الخِطاب، وحُذِفَ حرفُ النِّداء؛ إذ لم يرِد البيانُ القرآنيُّ: (قال نوحٌ يا ربِّ)؛ لعِلْمِ نوحٍ ﷺ مِن قُرْبِ اللَّه تعالى مِنْهُ[2].

دلالَةُ تأكيدِ الجُمْلَةِ بـ (إنَّ):

العصيانُ بعدَ طولِ البيانِ إنكارٌ للإحسانِ

أُكِّد الخبرُ بحرفِ التَّأكيد (إنَّ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾؛ لأنَّ تكذيبَهُم إيّاه بَعْدَ ما بيَّن لَهُم من الأدلَّة ممّا يَبْعُدُ وقوعُه، وأنَّه ممّا يُستَغرَب[3]، كما أنَّ فيه اهتمامًا بمضمونِ الخبَر، وتأكيدَ ما دلَّ عليه مِن التَّحسُّر والاستِنصارِ[4].

دلالةُ التَّعبير بالعصيانِ مادَّةً وصيغةً:

الـدّائـبُ على المعاصي حقيقٌ به الكُفْرُ

عُبِّر بالعصيانِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم خالفوا ما أمرهُم به، وأنَّهم لم يَستَجيبوا له، وجاء التَّعبير بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق مَعْصيَتِهِم[5]، فكانوا جديرينَ بدعاءِ نوحٍ ﷺ عليهِم.

دلالَةُ إسنادِ فِعْلِ ﴿عَصَوْنِى﴾ إلى ضميرِ الفاعِلين:

أُسْنِد فعلُ المعصيةِ إلى واوِ الجماعةِ، في قوله تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم عَصَوْهُ جماعةً لا فرادى، وأنَّهم تمالؤوا على العِصْيان، واجتمعتْ كَلِمَتُهم على ذلكَ.

دلالَةُ العَطْفِ بالواو في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾:

أشدُّ الخسرانِ تركُ الإيمانِ واتِّباعُ أهلِ الزَّيْغانِ

عطف النَّظم الجليلُ اتِّباع الباطلِ على المعصيةِ، في قوله جلَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 183.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 359.

شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّهُم بدَلَ متابعَة الحقِّ معَهُ؛ اتَّبعوا سبيلَ الدُّنْيا بأن اتَّبعوا أكابِرَهُم مِن أهل الثَّراء والضَّلال[1]، فالعطفُ يُبيِّن شدَّةَ ضَلالِهِم؛ إذْ تركوا ما فيه سعادَتُهم، واتَّبعوا ما فيه الضَّلالُ.

دلالَةُ التَّعبير بالاتِّباع مادَّةً وصيغَةً:

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ الاتِّباع، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم اقتَفَوا أثرَ أسيادِهِم[2]، وجيءَ به على صيغة الافتعالِ ماضيًا؛ للدَّلالة على أنَّهم فعلوا ذلك، وحقَّقوه بغايَةِ الجُهْدِ والسَّعي[3]، وفيه إشارةٌ إلى استمرارهم على اتِّباع أسيادِهِم لا أنَّهم أحْدَثوه؛ إذْ إنَّهم كانوا متابعين لهُم قبلَ الدَّعْوَة[4].

الـحِـرْص على الـكُـفْـر وتـقـفّـي المعاصي منهاجٌ للكفّار

دلالَةُ التَّعبير بالاسْمِ المَوصول ﴿مَن﴾:

عُبِّرَ بالاسْم الموصول ﴿مَن﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾، دون التَّعبير عنهم بالاسْم الصّريح، فلم يَرِد في البيان القرآنيِّ: (واتَّبعوا كُبراءَهُم أو سادَتَهُم)؛ وذلك لِما تُشير إليه صِلَةُ الموصولِ مِن كَوْنِهِم بَطَروا نعمةَ اللّهِ تَعالى عليهم بالأموالِ والأولاد، فقَلَبوها إلى ما يوجِبُ الخُسْرانَ والضَّلالَ بدلًا من الشُّكر والإيمان[5].

اتِّـبـاعُ المُنَعَّمين الـضّـالّـين أولى عتباتِ الضَّلالِ

توجيهُ القِراءات في (ولده):

قرأ نافِعٌ وابنُ عامِرٍ وعاصِمٌ وأبو جعفرٍ ﴿وَوَلَدُهُۥ﴾ بفتح الواوِ وفَتْحِ اللّام، وقرأ باقي العشرةِ ﴿وَوُلْدُهُۥ﴾ بضَمِّ الواو وسكونِ اللّام[6]، فالوَلَدُ اسمٌ للواحد من الأولادِ، ويُطلَقُ على الجَمع أيضًا، فيكون اسْمَ

مَـهْـمـا زادَ الـكـافـرون في الـعـدَدِ؛ فـإنَّ جَمْعَهُم بدَدٌ

(1) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 339.
(2) الراغب، المفردات: (تبع).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 359.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(6) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 391.

جنسٍ، وأمّا (الوُلْد)؛ فالراجح فيه أنَّه جَمْعٌ، مثل كالأسَد والأُسْد[1]، وفي جمع الكثرةِ المبنيِّ على الضَّمِّ التي هي أشدُّ الحركات إشارةٌ إلى أنَّهم وإن زادَت كثرَتُهم، وعَظُمَت قوَّتُهم في الظّاهر؛ لا يَزيدُهُم ذلكَ شيئًا إلّا الخَسارَ[2].

وَجْهُ زيادَةِ المالِ والوَلَدِ للخُسْرانِ:

نسب النَّظم الجليلُ زيادةَ الخُسْران إلى الأموالِ والأولادِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ وذلك لأنَّ البَسْطَ لَهُم في النِّعمة أعْقَبَهُم الطُّغيانَ والبَطَر، فاتَّبَعوا أهواءَهُم، وكَفَروا، وضَلّوا[3]، فضلًا عَن أنَّهم لمّا استَعْمَلوها في تأييدِ الكُفْر والضَّلال كانت سببًا في خُسْرانِهم، ولو لم تَكُن لَهُم أموالٌ ولا أولادٌ؛ لكانوا أقلَّ جُرأة على الكُفْرِ والفَسادِ[4].

وفرةُ الخَيْرِ أعقَبَتْهُم الطُّغيانَ لا الشُّكْرانَ

سِرُّ الجَمْعِ بينَ المالِ والولَدِ على هذا التَّرتيب:

جُمِعَ بين الأموال والأولاد في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ لبيان أنَّهم أصحابُ أموالٍ وأولادٍ، ممّا يشير إلى سبَبِ نَفاذِ قَوْلِهم واتِّباعِ النّاسِ لَهُم، فالجَمْعُ إدماجٌ بَيَّنَ أسبابَ طُغْيانِهم[5]، كما أنَّ ذِكْرَ الأولاد بعد الأموالِ علامَةٌ على وفرَةِ الخَيْرِ والبركَةِ، فقَد ثبَت في عِلْم الاجتماع أنَّ النَّسْلَ لا يكثُر إلّا إذا توفَّر الأمنُ والعدلُ، وتوسَّعَ الرِّزْقُ[6].

المالُ أساسُ الوفرةِ وزيادَةِ النَّسْلِ

دلالةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بأسلوب الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ أموالَهُم

لَم يَجْنِ أهلُ الكُفْرِ مِنْ نِعَمِهِم إلّا الخسرانَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 447.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 447.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 253.

وأولادَهُم لَم تَزِدْهُم شيئًا مِن الأشياءِ إلّا خسارًا؛ ببُعْدِهِم مِنَ اللّه تعالى في الدُّنيا والآخرة[1]، فلم ينتفعوا من نِعْمَةِ اللّه تعالى بأن يَستَعمِلوها في مَرْضاتِه ومعرفةِ آلائِه.

وفي جملةِ: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ قصرٌ بطريقِ النَّفي والاستثناءِ، وهو مِنْ قصر الموصوفِ على الصِّفةِ قصرًا إضافيًّا.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالخُسْرانِ، ونُكْتَةُ تَنْكيرِهِ:

عِـظَـمُ خُـسـرانِ الـكـافـريـنَ لا يُقاس بالمَوازينِ

عُبِّر بلفظ الخُسْرانِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ لدلالته على نَقْصِ رأسِ المال، ولفظُ الخُسْرانِ يُستعمَلُ في المجازِ غالبًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: 9]، ففي قوله: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ شُبِّهوا بمن جَعَل نفسَهُ سلعَةً تُباعُ، فَخَسِرَها، ولا خسرانَ أكثَر ممَّن عُدِمَ جميعَ رأسِ مالِه[2]، فهو هنا دالٌّ على أنَّهم خَسِروا كلَّ شيءٍ، وهذا أشدُّ ما يَفْقِدُه الإنسانُ، وجيءَ بلفظِ الخسارِ مُنَكَّرًا؛ للدَّلالة على عِظَمِ هذا الخُسْرانِ.

بلاغَةُ الاستِعارَةِ في لَفظِ الخُسْرانِ:

مَن عَمِلَ سيِّئَةً؛ فعلَيهِ وِزرُها ووِزْرُ مَن تَبِعَهُ عليها

الخَسارُ في قوله تعالى: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾: "مستعارٌ لحصول الشَّرِّ من وسائلَ شأنُها أن تكونَ سببَ خيرٍ، كخسارةِ التّاجر من حيثُ أراد الرِّبح، فإذا كان هؤلاءِ خاسِرين؛ فالذين يَتْبَعونَهُم يكونونَ مثلَهُم في الخسارةِ، وهُم يَحْسَبون أنَّهم أرشدوهُم إلى النَّجاح"[3].

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾:

عطف النَّظم الجليلُ الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا

(1) الخطيب، السراج المنير: 4/ 393.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (خسر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.

مِن وجوهِ الإصرارِ على الكُفرِ المكرُ والصَّدُّ عن التَّوحيد بالأباطيلِ

الاحتيالُ الخفيُّ خديعةٌ لصَدِّ النّاس عن الإيمانِ

كُبَّارًا﴾ على الجملة في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ﴾[1]؛ وذلك لأنَّ الكُبَراء هُم الذين مكروا، وقالوا لأتباعِهم: لا تَذَرُنَّ آلِهَتَنا[2]، وفي العطف دليلٌ على شدَّة إصرارِهم على الكُفْر، وتَماديهِم في الجُحودِ والإنكار، بالتَّحايُلِ في الصَّدِّ عن سبيل اللّهِ تَعالى.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالمَكْرِ:

عُبِّر بالمَكْرِ في قوله تَعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾؛ لدلالَته على صَرْفِ المَرْءِ عمّا يَقْصِدُه بحيلَةٍ[3]، فلمّا احتالوا لصَرْفِ النّاسِ عَن نوحٍ وتَحْريشِهم على أذاهُ وصَدِّهم عن المَيْلِ إليهِ؛ سَمّى ذلك مكرًا[4]، وقد أحسن الفخرُ الرّازيُّ؛ إذْ قال: "إنَّما سمّاهُ مكرًا لوجهين: **الأوَّل:** لِما في إضافَةِ الإلهيَّة إليهم مِنَ الحيلَةِ الموجِبَةِ لاستمرارهم على عبادتها، كأنَّهم قالوا: هذه الأصنامُ آلِهَةٌ لكُم، وكانت آلهةً لآبائكم، فلو قَبِلْتُم قولَ نوحٍ؛ لاعترفْتُم على أنفُسِكُم بأنَّكم كنتُم جاهِلين ضالّين كافرين، وعلى آبائكُم بأنَّهم كانوا كذلكَ، ولمّا كان اعترافُ الإنسانِ على نفسه وعلى جميع أسلافهِ بالقُصور والنَّقص والجَهْلِ شاقًّا شديدًا؛ صارتِ الإشارةُ إلى هذه المعاني بلفظ ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾ صارفًا لهم عن الدّين، فلأجل اشتمالِ هذا الكلام على هذه الحيلةِ الخفيَّة؛ سمّى اللّهُ كلامَهُم مكرًا.

الثّاني: أنَّه تعالى حكى عن أولئكَ المَتْبوعينَ أنَّهم كان لهم مالٌ وولَدٌ، فلعلَّهُم قالوا لأتباعِهم: إنَّ آلِهَتَكُم خيرٌ مِن إلَهِ نوحٍ؛ لأنَّ آلهتَكُم يُعْطونَكُم المالَ والولد، وإله نوحٍ لا يعطيهِ شيئًا؛ لأنَّه فقير، فبهذا المَكْرِ صَرَفوهُم عن طاعةِ نوحٍ"[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 285.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 656.
(3) الراغب، المفردات: (مكر).
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 545.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 656.

دلالةُ التَّعبير بالمفعولِ المُطْلَقِ:

شـدَّةُ الاحتيالِ دليلُ الانغماسِ في الضَّلالِ

عبَّر النَّظم الجليلُ بالمفعولِ المطلق، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ لتأكيدِ مَكْرِهم، وللدَّلالة على قوَّتِه، فهو مَكْرٌ بليغٌ شديدٌ[1].

دلالَةُ جِناسِ الاشتِقاقِ في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾:

المَكْرُ العظيمُ تعبيرٌ عن عُمْقِ الشَّرِّ في أنفُسِهم

جُمِعَ بينَ لَفظَينِ من مادَّةِ المَكْرِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ على طريقة جناسِ الاشتقاقِ، وفائدة ذلك الدَّلالةُ عَلى تمكُّن المَكْرِ من نُفوسِهم، وأنَّه مَكْرٌ بالِغُ العِظَمِ، فكرَّر ألفاظَهُ إيحاءً بشُموليَّتِه وشِدَّتِه.

دلالَةُ التَّعبيرِ بلَفْظِ الكِبَرِ مادَّةً وصيغَةً:

الصَّدُّ عن التَّوحيدِ أعظَمُ مَكْرٍ وأكبَرُ جُرْمٍ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿كُبَّارًا﴾، في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾؛ لدلالَتِه على العِظم، فهو كَبيرٌ وكُبارٌ، فإذا أفرط؛ قيل: كُبّارٌ[2]، فعبَّر بذلك للدَّلالة على عِظَم المَكْرِ وهَوْلِه، وهو صيغَةُ مُبالَغَةٍ مِنَ الكبيرِ[3]، وإنَّما كانَ مَكْرُهُم شديدَ الكِبَرِ؛ لأنَّهم لمّا صدّوا قومَهُم عن التَّوحيدِ الذي هو أعظَمُ المراتِبِ؛ كان جُرْمُهُم بالمَنْعِ منهُ أعظَمَ الكبائِرِ، فلهذا وصفَهُ اللّهُ تَعالى بأنَّه كُبّار[4].

وجهُ العَطْفِ بالواوِ في ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ﴾:

شِدَّةُ انحرافِ المتْبوعينَ؛ أوْرَثَ شِدَّةَ انحرافِ الأتْباعِ

عُطِفَتِ الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، على قوله تعالى: ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾[5]؛ وذلك لأنَّ الكُبَراء هُم الذين مكروا، وقالوا لأتباعِهم: لا تذَرُنَّ آلهتَنا[6]، فوصّوا أتباعَهُم بذَلِكَ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 448.
(2) الجوهري، الصحاح: (كبر).
(3) الواحدي، البسيط: 22/ 263.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 656.
(5) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 196.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 656.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بأُسلوبِ النَّهْيِ المؤَكَّدِ:

إيغالٌ في الحِرْصِ على الباطِلِ

عُبِّر بأسلوب النَّهي المؤكَّدِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ وذلك لحثِّ أتْباعِهم على التَّناهي عن تَرْكِ عبادَةِ الآلهة في حالٍ مِن الأحوالِ[1]، وذلك يبيِّن شدَّةَ تمسُّكِهم بشِرْكهم وحِرْصِهم على الباطلِ والضَّلالِ.

دلالَةُ استِعمالِ الفِعلِ ﴿تَذَرُنَّ﴾:

دعوةٌ للتَّشَبُّث بالضَّلال الموروثِ عَنِ الآباءِ

عُبِّر بالفعل ﴿تَذَرُنَّ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ لدلالَتِه على التَّرك، أي: لا تتركوا عبادةَ آلهتكم[2]. ودلالته أيضًا على عدَمِ الاعتداد بالشَّيء، كقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: 186]، أي: يتْرُكُهم، فلا اعتدادَ بِهِم ولا مبالاة، وهذا الفعلُ لَم يُستَعمَل منه ماضٍ ولا مصدرٌ[3].

سِرُّ جَمْعِ الآلِهَةِ وإضافَتِها إلى الضَّميرِ:

الشِّركُ معهودٌ والأصنامُ موروثَةٌ

جُمِعَ لفظُ الآلهةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ للدَّلالة على تمسُّكهم بالشِّرك، وانتفاء التَّفريط في واحِدٍ مِن آلهتهم، وفي الإضافَةِ إلى الضَّميرِ تذكيرٌ لَهُم بأنَّها آلهَتُهُم وآلهَةُ آبائِهم التي يَفْتَخِرونَ بِها[4].

توجيهُ العَطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾:

الأصنام المذكورة أعظَمُ ما لدى القومِ مِن آلهَةٍ

يجوز أن يكون ذِكْرُ الأصنام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، من عطفِ الخاصِّ على العامِّ للعناية بها؛ لكونِ قومِ نوحٍ عليه السلام لهم أصنامٌ كثيرة، جمَعَها قولُ كبرائِهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، ثُمَّ خصّوا بالذِّكر أعظمَها، وهي هذه الخَمْسَةُ، ويجوز أن يكون ذِكْرُها من التَّفصيل بعد الإجمالِ للعناية بها، ويكون

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 449.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 360.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (وذر).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 449.

العطفُ مِن قبيل عطفِ المُرادِف، بألّا يكونَ لَهُم غيرُ تلك الأصنام الخمسةِ، وقد ذُكِرتْ مفصَّلةً[1].

دلالَةُ تَكْرار جملة النَّهي:

حـثٌّ بـلا تـوانٍ عـلى التَّـمسُّك بالباطِلِ

كرَّر النَّظم الجليلُ جملةَ النَّهي (لا تذرنَّ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾؛ وذلك لتأكيدِ النَّهي، فهو تأكيدٌ لفظيٌّ بتكرار اللَّفظِ نفسِهِ[2]، فأكَّدوا نهيَهُم بتكرارِهِ؛ ليزيدوا في حثِّ قومِهم على لزومِ شِرْكِهِم.

دلالَةُ التَّوكيدِ بنونِ التَّوكيدِ:

أُكِّدَ الفعلُ بنون التَّوكيد، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة الحِرْص، والحثِّ على التَّمسُّك بالآلهةِ وعدَمِ تَرْكِها[3].

دلالَةُ تَخْصيصِ الأصنام بالذِّكْرِ:

التَّذكير بالمعهودِ مِن الأصنامِ حثٌّ على الولاءِ

خُصَّ الأصنامُ المذكورَةُ دون سِواها بالذِّكر، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، بعد أن ذُكِرَتِ الآلهةُ على العموم في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ وذلك للتَّنْويه بها؛ لأنَّها أكبَرُ أصنامِهِم وأعْظَمُها عندَهُم[4]، فضلًا عن أنَّ في تخصيصِها زيادةً في الحثِّ على التَّمسُّك بها، وتصريحًا بالمقصودِ مِن ذِكْرِ الآلهَةِ[5].

دلالَةُ تَكْرارِ حَرْفِ النَّفي مع بعضِ الأصنام دونَ بعضٍ:

الـحِـرْصُ على عـدَمِ التَّفريط بـصـنَـمٍ مِـنَ الأصنامِ

كرَّر النَّظم الجليلُ حرفَ النَّفي مع بعض أسماء الآلهةِ دون بعضِها، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾؛ لأنَّ فائدة التَّكرار تأكيدُ النَّفي والمبالغةُ فيه، وأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 209.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 209.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 201.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 545.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 449.

النَّفْيَ يشمَلُ كلَّ واحد منهُم فردًا فَرْدًا لا عن المَجْموع، ولَم يُكَرَّر النَّفي مع آخِر اسمَينِ؛ لأنَّ التَّأكيد بلَغَ غايَتَهُ، فلَم يُحْوِج إلى تكرارِه[1]، فإنَّ بناءَ الكلام جارٍ على أنَّ التَّأكيد لا يُزاد فيه أكثر مِن ثلاث مرّاتٍ في التَّكرار[2].

دِلالَةُ عَطْفِ الجُمْلَةِ الخبريَّةِ على الإنشائيَّةِ:

الإضرارُ عَلى التَّمادي في الضَّلالِ والدَّعوةِ إلى الباطِل

عُطِفَتِ الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾؛ لكونها من مقول القولِ الذي قاله نوحٌ عليه السلام، فَعُطِفَت جملةٌ خبريَّة على إنشائيَّة؛ إذْ لا يُشترَط التَّناسب في عطف الجملِ، فيجوز أن تُعْطَفَ جملة الإنشاء على جملة الخبر، والعكس[3]، ويجوز أن تكون معطوفةً على قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾؛ إذ لمّا ذَكَرَ مَكْرَهُم، وحثَّهم على عدَمِ تَرْكِ الآلهة؛ عطف عليه ما يُتَوَقَّع من أمر ذلك المَكْرِ والحَثِّ[4].

بلاغَةُ التَّوكيد بالحَرْفِ (قد):

الإضلالُ واقِعٌ، ومنهَجٌ سارَ عليه كُبراءُ الكفّار

عبَّر النَّظم الكريمُ بحرفِ التَّحقيق (قد)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾؛ وذلك للدَّلالة على التَّأكيد[5]، فإنَّ إضلالَهُم النّاسَ لَم يكُن مجرَّد دعوةٍ، بل قَد وقَعَ، وتحقَّق في الواقع، فضلَّ النّاسُ عَنِ الحقِّ والهدى، فهو تمهيدٌ لِما يأتي من الدُّعاءِ عَلَيْهِم.

دِلالَةُ التَّعبير بالضَّلال مادَّةً وصيغَةً:

ضلّوا عن الهُدى، وأضلّوا، وتمادوا في الغيّ

جاءَ التَّعبيرُ بالضَّلال، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قد صدّوا النّاسَ عن الحقِّ، وعن اتِّباع نوحٍ عليه السلام[6]، والفعل (أضلَّ) متعدٍّ دالٌّ على أنَّهم قد ضلّوا أوَّلًا، ثُمَّ إنَّهم كانوا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 449، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 261.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 209 - 210.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 287.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 451.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 202.
(6) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 202.

سببًا في ضلال كثيرٍ من النّاس بصدِّهم وبكونهِم قادةَ القوم، فضَلَّ كثيرٌ مِن النّاس بسببهم[1]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تَحَقُّقِ ذلكَ مِنْهُم.

دلالَةُ التَّعْبير بلَفْظِ الكَثْرَةِ:

من سنَّ سنَّة سيّئةً؛ فعليهِ وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها

عبَّر النَّظم الجليل بالكثرة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قد صدّوا كثيرًا من النّاسِ، وذلك في زمانِهم والأزمنَةِ التي تَليهِم، فإنَّهم أوَّلُ مَن سنَّ الشِّرْكَ والكُفْر، فكان عليهِم وِزْرُ ذلك ووزر مَن عمل بهِ بعدَهُم إلى يومِ القيامَة[2].

دلالَةُ عَطْفِ الإنشاءِ عَلى الخبَر:

حكايَةُ الحالِ تمهيدٌ للشَّكْوى والسُّؤالِ

عطف النَّظم الجليلُ أسلوبَ الدُّعاءِ – وهو إنشاءٌ – في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، على الخبَرِ في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾؛ لكونِهِ من تمام كلامِ نوحٍ ﷺ، فقد ختَمَ شَكْواه إلى اللّهِ تعالى بالدُّعاء على المشركين الذين ضلّوا عن الحقِّ بأنْ يزيدَهُم اللّهُ ضلالًا، ولا ضَيْرَ مِن عطفِ الإنشاء على الخبر، فهو غيرُ مَمْنوعٍ على وجهِ الإطلاقِ، وقَد تكرَّر كثيرًا في القرآنِ الكريم[3].

تَوْجيهُ مَعْنى الاعتِراض في الآيَةِ:

دُعاءُ المُستَكبِر لا يَزيدُه إلّا عِنادًا وجُحودًا

يجوز أن تكون الواوُ اعتراضيَّة، وجملة: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ معتَرِضة؛ على أنَّها مِن كلامِ اللّهِ تعالى لنوحٍ ﷺ، والتَّقدير: (وقلنا: لا تزِدِ الظّالمين)، والمعنى: ولا تَزِدْ في دُعائِهم، فإنَّ ذلك لا يَزيدُهُم إلّا ضلالًا، فالزّيادة منه تزيدُهُم كُفْرًا وعنادًا، وقد أعْلَمَ اللّهُ تَعالى نوحًا ﷺ أنَّه مُهْلِكُهُم بقوله: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾، وفي قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 60.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 451.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 210.

تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: 36 - 37][1].

دِلالَةُ الدُّعاء بصيغَةِ النَّهْيِ:

يأسٌ مِن انتِفاعِ القَومِ بالدَّعوةِ

جاءَ التَّعبيرُ بأسلوبِ النَّهي، في قوله تَعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾؛ للدُّعاء على قوم نوحٍ عليه السلام بالضَّلال، فهو دَعْوَةٌ مِن نوحٍ عليه السلام على قَوْمِه؛ لتمسُّكِهم بكُفْرِهم وتمرُّدهم على الدَّعوة وعِنادِهم[2]، وإنَّما دعا عليهم بَعدَ أن أيِسَ مِن إيمانهم بإخبار اللّه تَعالى له بأنَّهم لا يُؤْمِنون، بقوله تَعالى: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: 36][3]، "فصيغَةُ النَّهي مستعملَةٌ في التَّأْييسِ مِن نَفْعِ دَعْوَتِه إيّاهُم"[4].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالظُّلْمِ مادَّةً وصيغَةً:

صَرْفُ العبادَةِ لغَيْرِ اللهِ تَعالى ظُلْمٌ وضلالٌ راسِخٌ في المُشْرِكينَ

المرادُ بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾: قومُ نوحٍ عليه السلام الذين عَصَوهُ، وقد عُبِّر بلَفْظِ الظُّلم عَنِ المُشْرِكين؛ لعبادَتِهم الأوثانَ مِن دون اللّه تعالى، فَوَضَعوا العبادَةَ في غَيْرِ مَوْضِعِها[5]، وجاء التَّعبير بصيغة اسْمِ الفاعِلِ؛ للدَّلالة على ثُبوتِ الوَصْفِ لهُم وعَدَمِ انفكاكِهِ عَنْهم، أي: لا تزِد الرّاسِخينَ في الظُّلْمِ إلّا ضلالًا[6].

سِرُّ وضعِ المُظْهَرِ موضِعَ المُضْمَرِ:

كلُّ ظالِمٍ بالشِّركِ مشمولٌ بدَعْوَةِ نوحٍ عليه السلام

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، وضعٌ للمُظْهَر موضعَ المضمرِ؛ إذ إنَّ مُقْتَضى الظّاهِر أن يُعبِّرَ البيانُ القرآنيُّ عنهم بالضَّمير عائدًا إليهم: (ولا تَزِدْهُم)،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 211.
(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 197.
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 347.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 211.
(5) الواحدي، البسيط: 22/ 270، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 210.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 452.

وعُدِلَ عن الإضمار إلى الإظهار؛ لتَعْميم الحكم على كلِّ ظالِم، وللإشارةِ إلى علَّة هذا الدُّعاء والاستحقاقِ، وهيَ الظُّلم[1]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالاسمِ الظّاهر يُسَجِّل عليهم صفَةَ الظُّلم، فَهُم ظالمونَ لِشِرْكِهِم وضَلالِهِم[2].

بَلاغَةُ الاستِثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

جاءَ أسلوبُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾، وهي هنا دالَّةٌ على الحَصْر والقصْرِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾؛ وذلك لتأكيدِ الشَّيءِ بِما يُشْبِهُ ضدَّه، "أي: حُل بيننا وبينَ مَكْرِهِم، ولا تَزِدْهُم إمْهالًا في طغيانهم علينا إلّا أن تُضَلِّلَهُم عَن وسائله، أو أراد إبْهامَ طرقِ النَّفع عليهم؛ حتّى تَنْكَسِرَ شوكَتُهم، وتلينَ شَكيمَتُهم، نظير قولِ موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: 88]"[3].

إبهامُ طُرُقِ النَّفعِ كسرٌ لشَوْكَةِ الضّالِّ المتكبِّر

دلالَةُ جناس الاشتقاقِ بين ﴿أَضَلُّواْ﴾ و﴿ضَلَٰلًا﴾:

جمعَ النَّظم الجليلُ بين لفظي ﴿أَضَلُّواْ﴾، و﴿ضَلَٰلًا﴾، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، وكلاهما من الجذر (ضلَّ)؛ وذلك ليكونَ جَزاؤُهم مِن جِنْسِ عَمَلِهم، فلا ينالونَ مَقصدَهُم كما صدّوا النّاسَ عَن مقصدِ الإيمانِ[4].

الجزاءُ مِن جِنْسِ العَمَل

دلالَةُ تنكيرِ لَفظِ الضَّلال:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عَن الضَّلالِ مُنكَّرًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾؛ للدَّلالة على تعظيم الضَّلالِ المَسؤولِ، بأن يُطْبَع على قلوبِهم طبعًا بحيثُ يَعْمَونَ عن الحقِّ، ويَضِلّون عن جميعِ مقاصِدِهم، حتّى ما كان مِنها باطلًا، فلا

الضَّلالُ العظيمُ لا نورَ بَعْدَهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 451.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 343.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 211.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 202.

يتحقَّقُ منها شيءٌ[1]، فليس المرادُ مِن الضَّلالِ نقيضَ الهداية، بل أراد به ما يتعلَّق بأمْرِ الدُّنيا، لا في أمر الآخرة[2]، فإنَّ الضَّلالَ عن طريق الحقِّ والتَّوحيد، ينافي دعوةَ نوحٍ ﷺ قومَه إلى الاستغفارِ والإيمان بالبَعْثِ[3].

دلالَةُ وجْهَي الاستعارةِ والحقيقَةِ في لفظِ (الضَّلال):

في كفِّ الظّالم عن الأذى نجاةٌ وحياةٌ

(الضَّلال) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ مستعارٌ لعدم الاهتداء إلى طرائق المَكر الَّذي خَشيَ نوح ﷺ غائلَتَهُ في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾، ويجوز أن يكون أُطلِقَ على العذابِ المسبَّبِ عن الضَّلال، والمرادُ: عذابُ يومِ القيامة، وهو عذابُ الإهانَةِ والآلام[4].

ويجوزُ أن يكونَ لفظُ الضَّلال محمولًا على حقيقَتِه، والمَعْنى: ولا تَزِدْ في دُعائِهم، فإنَّ ذلك لا يَزيدُهم إلّا ضلالًا، فالزّيادةُ منهُ تَزيدُهُم كُفْرًا وعنادًا، في حالِ عَدِّ الواوِ اعتراضيَّةً، وجملةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ معترضةً، على أنَّها مِن كلامِ الله تعالى لنوحٍ ﷺ، والتَّقدير: (وقلنا: لا تزد الظّالمين)[5].

بلاغةُ فَصْلِ جُمْلة ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾:

حكايَةُ الهلاكِ تَسليةٌ لرسولِ الهُدى ﷺ

فُصِلَت الجملةُ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾؛ لأنَّها مستأنفَةٌ، سيقَت للاعتراضِ بينَ الجُمَلِ التي حكَت أقوالَ نوح ﷺ، فهي مِن قولِ الله تعالى للتَّعجيل بتسليةِ النَّبيِّ ﷺ، فيخبره بأنَّه قدَّر النَّصرَ لنوحٍ ﷺ، وأنزل العقابَ بقَوْمِه قبلَ أن يَسْأَلَهُ نوحٌ ﷺ استئصالَهُم، فإنَّ ما لاقاهُ النَّبيُّ ﷺ من قومِه يُماثِلُ ما لاقاهُ نوحٌ ﷺ مِن قَوْمِه[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 452.
(2) الخازن، لباب التأويل: 4/ 347.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 29/ 211.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 211.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 211.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212.

دلالَةُ (مِن) في قولِهِ: ﴿مِّمَّا﴾:

الـذُّنـوبُ سببٌ لِلعقوبةِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحَرْفِ الجرِّ (مِن)، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾، وهي هنا للسَّببيَّة والتَّعليلِ، أي: مِن أجلِ خَطيئاتِهم وبِسَبَبِها[1].

نكتَةُ التَّعبيرِ بـ (ما):

الخطايا أصلُ البلاءِ

عُبِّر بـ (ما) في ﴿مِّمَّا﴾ مِنْ قول اللّه تَعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾؛ وهي هنا صِلَةٌ بينَ الجارِّ والمجرورِ لإرادَةِ التَّوكيدِ، وقد جيء بها لتأكيدِ مَعْنى التَّعليلِ[2]، فالإغراقُ وقعَ بسبَبِ خَطيئاتِهم لا بغَيْرِها، وفي ذلك: إبْطالٌ لمُعْتَقَد الكافرين بأنَّ الإنجاءَ والإهلاكَ عادَةُ الدَّهْرِ[3].

بلاغَةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجُمْلَة:

الخَطايا سبَبُ العَذابِ في الدُّنيا والآخِرَة

قُدِّم شبهُ الجملة على الفِعْلِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾، فلم يَرِد في البيان القرآنيِّ: (أُغْرِقوا من خطيئاتِهم)؛ وذلك لحَصْرِ الإغراقِ في علَّة ارتكابِ الخَطايا، فلم يكُن إغراقُهُم بالطّوفان وإدخالُهُم النّارَ إلّا من أجْلِ خَطيئاتِهم[4]، فلم يكُن عقابُهُم لمجرَّدِ استجابتِهِ تعالى لدعوة نوحٍ ﷺ، وذلك ليُعْلَمَ أنَّ اللّه تَعالى لا يقرُّ عبادَهُ على الشِّرك بعد تبليغِهِم بالرِّسالة، وإنَّما تأخَّر عذابُهم إلى ما بعدَ دُعاء نوحٍ ﷺ؛ لإظهار كرامتِهِ عندَ ربِّهِ سُبحانَهُ بينَ قَوْمِه[5].

دلالَةُ جَمْعِ الخَطيئَةِ:

ذنوبٌ لا تُحصى كثرةً، ولا تَنْحَصِرُ نوعًا

آثر النَّظمُ الكريمُ جَمْعَ لفظِ الخطيئةِ، في قوله سُبحانَهُ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾؛ لكثرةِ مَعاصيهِم وتنوُّع جَرائِمِهم وجَرائِرِهم،

(1) الواحدي، البسيط: 22/ 271.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 453.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 546.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212.

كالإشراكِ باللهِ تَعالى، وتكذيبِ الرَّسول، وأذاهُ، وأذى المؤمنينَ معَهُ، والسُّخرية منهُم[1]، وهُم قَد كفروا بالإيمانِ، وكذَّبوا بالرِّسالة، وتمسَّكوا بالطّاغوت، وهذا قدرٌ كافٍ في استحقاقِ العذابِ[2].

دلالَةُ إضافة (الخطيئات) إليهم:

يُهْلَكُ الكافرونَ بخَطيئاتِهم

أضاف النَّظم الجليلُ الخطيئاتِ إلى ضميرِ القوم، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العذابَ قَد وقَعَ عليهِم؛ بِسَبَبِ ذُنوبِهِم التي ارْتَكبوها بأنفُسِهِم، فما ظَلَمَهُمُ اللهُ تعالى، ولكنَّهم هُمُ الظّالمونَ.

توجيهُ القِراءاتِ في ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾:

الإكثارُ مِنَ الذُّنوب يوجِبُ تغليظَ العقوبَةِ

قرأ الجمهورُ ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ بجمع (خطيئة) - بالهَمْزِ - جَمْعَ مؤنَّثٍ سالمًا، وقرأ أبو عَمْرٍو وحدَهُ ﴿خَطَٰيَٰهُمۡ﴾، وهي جمعُ (خَطيَّة)[3]، على أنَّهُ جمعُ تَكْسيرٍ، وهوَ دالٌّ على أنَّ لَهُم مع خطايا كُفْرِهم - من خلالِ إيمانهم بالطّاغوت، وتكذيبِ ربِّهِم، وتكذيبِ رسولِهِ ﷺ التي تكفي لاستئصالهم - مِنَ الذُّنوب ما يفوتُ الحَصْرَ، ويوجِبُ تغليظَ ذلكَ الأخذِ والاستِئصالِ[4].

دلالَةُ التَّعبير بالغَرَقِ مادَّةً وصيغَةً:

ليس الإغراقُ تهديدًا بَل هوَ واقِعٌ مُنْجَزٌ

عُبِّر بالإغراق في قوله تَعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم هَلَكوا بالطّوفان[5]، وعُبِّر عن ذلك بالفعلِ الماضي للدَّلالة على الهَلاك المحقَّق يقينًا، وقد جيءَ به مبنيًّا للمفعولِ؛ لأنَّ الإيجاعَ يقَعُ بالإغراقِ لذاتِهِ لا بكونِهِ مِن مُعَيَّنٍ، فضلًا عَن دلالتهِ عَلى سُهولَةِ إيقاعِهِ عليهِم[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 203.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 453.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 391.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 453.
(5) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 343.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 453.

دلالَةُ عَطْفِ إدخالِ النّارِ على الإغراقِ بالفاءِ:

بَـعـدَ الإغـــراقِ ليسَ إلّا النّارُ مصيرًا

عُطِفَ إدخالُ النّارِ على الإغراقِ بحرف العطْفِ (الفاءِ)، في قوله سُبحانَهُ: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قَد تسبَّبَ عَنهُ، وأنَّه وقَعَ عَقِبَه[1]، فضلًا عَن دلالَته على قِصَرِ مدَّة اللَّبث في القبورِ، فكأنَّ العذابَ في الآخرةِ واقِعٌ عَقِبَ عذابِ الدُّنيا على الفَوْرِ.

ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ دالَّةً على التَّرتيب مع التَّعقيبِ على وجهِ الحقيقةِ، وأنَّ المرادَ تعذيبُهُم في قبورِهم بعد غرقِهم[2]، مع ما ينتظِرُهم في الآخرةِ من عذاب جهنَّمَ، ولذا قال ابن كثيرٍ عن قول الله تعالى: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾: "نُقِلوا مِن تَيّار البِحارِ إلى حَرارَةِ النّار"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الإدخالِ ماضيًا:

إدخالُ الكافرينَ النّارَ واقِعٌ يقينًا

عُبِّر عن الإدخال بالفعل الماضي المبنيِّ للمفعولِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾؛ للدَّلالة على الوُلوج فيها، وأنَّهم صاروا داخِلَها[4]، والإدخالُ في النّار أمْرٌ يقَعُ في المُستَقبَلِ، وقد عُبِّر عنه بالماضي؛ للدَّلالةِ على تحَقُّقِه[5]؛ لِكونه سيقَعُ على وجهِ اليَقينِ، وجاءَ الفعلُ بصيغَةِ المبنيِّ المفعول للاهتمامِ بالإدخالِ لذاتِه، وكونِه محقَّقًا لا بكونِه مِن معيَّن، وفي بنائِهِ للمفعولِ أيضًا إيجازٌ بحذفِ الفاعلِ، وذلك للعِلْمِ بمَن يُدْخِلُهُم النّارَ، وهو اللّهُ تعالى بأمرِهِ ملائكتَهُ بإدْخالِهم فيها.

ويجوزُ أن يكون التَّعبيرُ بالفِعْلِ الماضي على بابِهِ؛ إذا أُريدَ بإدخالهم النّارَ عذابُ القَبْرِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 453.
(2) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 445.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 236.
(4) الفيومي، المصباح المنير: (دخل).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 288.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ النّارِ:

عِـظَـمُ الـذَّنْـبِ يَـقْـتَـضي عِـظَـمَ العُقوبَةِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ تنكيرَ لَفْظِ النّارِ، في قوله تَعالى: ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾؛ لِما في التَّنكيرِ مِن تعظيمٍ وتهويلٍ، أي: أُدْخِلوا نارًا عظيمَةً[1]، جزاءً وفاقًا لإِصْرارِهِم على الكفر، بإنكارِهِم دعوةَ نوح عليه السلام.

بلاغَةُ مُحَسِّنِ الطِّباقِ:

بينَ الماءِ والنّارِ يتحوَّل الكافِرُ مِن عـذابٍ إلى عذابٍ

جَمَعَ النَّظمُ الجليلُ بين لَفْظَيِ الإغراق والنّار، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ على طريقة الطِّباق؛ إذ بين النّارِ والغَرَقِ المُشْعِرِ بالماءِ تضادٌ[2]، فهو تعبيرٌ غايَةٌ في البلاغة والحُسْنِ، فلمّا أُغرِقوا بالماءِ في الدُّنيا؛ أُحْرِقوا بالنّار في الآخرة، فجَمَعَ عليهم النَّقيضَيْنِ في عذابِهِم في الدّارين.

وفي تقرير الطِّباقِ مسلَكٌ آخَرُ، وهو إدخالُ النّارِ مستلزِمٌ الإحراقَ، والإحراقُ مضادٌّ للإغراقِ.

دلالَةُ الفاء في صَدرِ الجُملَة:

مِـن شـدَّة الـعـذابِ عـدَمُ الـنَّـصـيرِ وقـتَ الحاجَةِ لَهُ

افتتح البيانُ القرآنيُّ الجملةَ بالفاءِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾، وهي هنا للتَّفريع، فإنَّهُ لمّا أخبر بأنَّهم أُغْرِقوا، وأدخلوا نارًا؛ فرَّع عليهِ انتفاءَ وُجودِ نصيرٍ يمنَعُ عنهُم العذابَ، والجملةُ سيقَت للتَّعريض بالمُشْرِكين مِنَ العرَبِ، فإنَّهم زَعَموا أنَّهم يعبُدون الأصنامَ؛ لتَشْفَعَ لهُم، وتدفع عنهم كوارثَ الدُّنيا، أي: كما لَم تَنْصُرِ الأصنامُ مَن كان يعبُدُها مِن قومِ نوحٍ عليه السلام، فإنَّكم كذلك لا تَنْصُرُكُم أصنامُكُم[3].

فائِدَةُ التَّعبيرِ بشِبهِ الجُملَةِ ﴿لَهُم﴾:

لا خذلانَ للنَّفس أشدُّ مِن خذلانِ النَّصيرِ

اللّام في القيد ﴿لَهُم﴾ للتَّقويةِ والتَّوكيد[4]، وقد عبَّر النَّظمُ الجليلُ بشِبْهِ الجملة ﴿لَهُم﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 546.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212 - 213، وينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 659.
(4) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 2024.

مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المقصودَ مِنَ النَّصير أن يُحَقِّقَ النَّجاةَ لأنفُسِهم خاصَّةً، فالإخبارُ بذلكَ أشدُّ وقعًا ممّا لو كان انتفاءُ النَّصيرِ على وجْهِ العُموم، فلو قال: (فلم يجدوا من دون الله أنصارًا)؛ لدلَّ على انتفاءِ النَّصير على العموم، وهو قد يَنتَقِضُ بأنَّه قد يقَعُ لبَعْضِهم، وفي ذلك يقول البقاعيُّ: "وحقَّق الأمرَ فيهم بقوله: ﴿لَهُم﴾، أي: عندما أناخَ اللهُ بِهِم سَطْوَتَهُ، وأحلَّ بهم نِقْمَتَهُ"[1].

سِرُّ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿لَهُم﴾ على المفعولِ به:

قُدِّم شبهُ الجملةِ على المفعول بهِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾، فلم يقل: (فلم يجدوا أنصارًا لهم)؛ اهتمامًا بشأنِهم؛ إذ إنَّهم ذلك اليوم لا يهمُّهم شأنُ غيرِهم، ولا يَسعَونَ إلّا لنَجدَةِ أنفُسِهم.

كـلُّ امـرئٍ مـصـروفٌ إلى نـفـسِـهِ يـومَ الحسابِ

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿مِّن دُونِ﴾:

عُبِّر بشبه الجملة ﴿مِّن دُونِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ رتبَةَ كلِّ أحدٍ مَهْما علا شأنُه، فهي دون رتبتِه تعالى، فانقَطَعَت عنهم الأسبابُ، فلم يجدوا أحدًا - مِن آلِهَتِهم وشُركائِهم - يَنْصُرُهم مِن عذاب اللهِ تَعالى، ودلَّ إثباتُ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾ - وهي بيانيَّة - على استغراقِ جميعِ الرُّتَب دونَ رتبتِه تعالى[2].

كـلُّ دونٍ زائـلٌ وعَـن الـنُّـصـرةِ عاجِزٌ

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بالاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

آثر النَّظم الكريمُ التَّعبير بالاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الملكَ الأعظمَ ذا الجلالِ والإكرام تتضاءَلُ تحتَ رُتْبَةِ عظمتِهِ كلُّ الرُّتَبِ، وتَذِلُّ لعزَّته كلُّ المنازل والذَّوات[3].

أنّـى لـلـكـافـر النَّصير؟ وكلُّ ما دونَ اللهِ تَعالى ضئيلٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 454.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 454.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 455.

دلالة التَّعبيرِ بالأنصار جمعًا مُنَكَّرًا:

عُبِّر بالأنصار جمعًا مُنكَّرًا، في قوله تَعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ للدَّلالة على العموم، أي: لم يجدوا أحدًا يُمْكِنُ أن يَمنَعَهُم مِن عذابِ اللّه تعالى[1] ولو كانوا مجتمِعينَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّلال والزَّيغ:

الزَّيغ ميلٌ عن الاستقامة

الزَّيْغُ: الميلُ عَنِ الاستقامَةِ[2]، أمّا الضَّلالُ؛ فهو العدولُ عن الطَّريق المستقيم، ويضادُّه: الهداية، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [يونس: 108]، ويُطْلَقُ الضَّلالُ على كلِّ عدولٍ عن المنهَجِ[3]، فالضَّلال أشدُّ من الزَّيغ؛ إذ الزَّيغ ميلٌ عنِ الاستقامة، أمّا الضَّلال؛ فهو نقيضُ الهدايةِ، فهو عدول تامٌّ عن الطَّريق، وعبَّر في الآية بالضَّلال؛ لأنَّ رُؤَساء القومِ أضلّوا النّاسَ عَن الهُدى.

الزَّيغ ميلٌ عنِ الاستقامَةِ، والضَّلال مُفارقَةٌ لَها، فهو نقيضُ الهُدى

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 60.
(2) الراغب، المفردات: (زيغ).
(3) الراغب، المفردات: (ضل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"